الزوجة الحائرة

«منذ أجيال بعيدة، كان يتولى حكم الكرة الأرضية ملك مشهور، يدعي«ياساهكيتو»–أو بيرق الصيت، وقد أتخذ من مدينة «سوبهافاني» عاصمة لملكه .. وكان الناس يتوافدون من كل أرجاء المعمورة ليحجوا إلى معبدها الجميل الذي كراس لعبادة الآلهة البيضاء، وليغتسلوا في مياه بحيرتها–المسماة بحيرة الآلهة– حتى يتطهروا في مياهها المقدسة من ذنوبهم وآثامهم!.

وذات يوم، شد أحد الحجاج الشبان رحاله، من بلدته «براهماستالا»، متجهاً إلى البحيرة المقدسة ليتطهر من أدرانه.. فلما وصل إليها وقع بصره على فتاة رائعة الجمال كانت قد أتت بدورها لتغتسل في البحيرة.. وكان اسمها «ماداناسونداري»، وهي إبنة كاهن البحيرة «سودهاباتا». فما أن لمحها «دهافالا»– كان هذا هو إسم الشاب–حتى أصاب سهم الغرام قلبه، وقد بهره جمالها الأخاذ ، فخيل إليه أنها ولابد قد سلبت القمر بهاءه!.

وعاد إلى منزله–في ذلك المساء– وهو يعاني آلام الشوق والهيام، فعافت نفسه الطعام والشراب، ولاحت عليه دلائل العشق والغرام. وإذ لاحظت أمه التغير الذي ألم به سرى القلق إلى فؤادها، فأخذت تلح

عليه بالسؤال عساه يفضي إليها بمكنون قلبه، حتى كشف لها–آخر الأمر–عن سر غرامه بالفتاة.. ذلك الغرام الذي لم يكن له فيه ثمة أمل . فهرعت الأم إلى زوجها «فيمهالا» طارحة بين يديه مشكلة إبنها. بيد أن هذا لم يجد في الأمر مدعاة لليأس، وقال لإبنه:

« لماذا أنت مبتئس هكذا يابني؟ أن أمنيتك ليست عسيرة التحقيق. إن «سودهاباتا» لن يضن عليك بيد إبنته، إذا طلبتها منه. حقاً إننا لا ندانيه في شرف المهنة ووفرة الدخل، إلا إننا أصدقاء منذ زمن بعيد، وللصداقة حقوقها!».

وأعادت كلمات الأب السلام والطمأنينة إلى نفس الإبن، فهدا روعه، وعاد إلى تناول طعامه. حتى إذا كان اليوم التالي، إصطحب الأب إبنه إلى منزل «سودهاباتا»–والد الفتاة–وطلب منه أن يوافق على زواج إبنته من إبنه «دهافالا». وكان الأب على حق في تفاؤله، إذ أن أب الفتاة رحب بعالب الرجل، بل لقد ذهب إلى أبعد من ذلك إذ حدد اليوم التالي لعقد القرآن!.

وما إنتهت مراسم الزواج، حتى شد الفتى رحاله عائداً إلى أبيه في مدينة «براهماستالا»، حيث عاش مع عروسه هانئين، ترفرف السعادة حولهما!.

***

وذات يوم، زارهم شقيق العروس، فرحب به جميع أهل البيت ترحيباً حاراً. وبعد أن نال حظاً من الراحة قال لهم: «لقد أرسلني أبي لدعوة «ماناسونداري » وزوجها الحضور الإحتفال بتكريم الآلهة العظيمة، فقبل العروسان الدعوة بسرور. وقضت «ماناسونداري» وجميع أهل البيت بقية اليوم في إعداد لوازم الرحيل، وفي تزويد الضيف بكل ما لذ وطاب من طعام وشراب!.

وفي اليوم التالي شرعوا في رحلتهم عند الفجر.. وفي أثناء سيرهم، مروا بمعبد الآلهة البيضاء، الفخم البنيان، فحلت بالزوج نوبة من نوبات الورع والتقوى ، وقد أحس بحاجة ملحة إلى تقديم صلاة الشكر إلى الألهة التي حققت الله أعز أمانيه. فقال لزوجته وأخيها: «هلم بنا نزور سيدتنا،

«الآلية العظيمة»، لكن الأخ إعترض على ذلك بقوله: « كيف نزور الآلهة، دون أن نحمل لها هدية أو ذبيحة ؟»، فقال «دهافات»: إذن، سأذهب بمفردي، فانتظراني هنا .

ودخل «دهافالا» المعبد، وخر على ركبتيه في خشوع أمام تمثالها، وراح يسكب قلبه في صلاة خاشعة، مردداً مآثرها وأفضالها على البشر مناجياً إياها بقوله: يامن خنقت المارد «رورو» بأذرعك الثماني عشر. ومن وطأت المارد لا «ماهيشا» بقدميك الدقيقتين اللتين تشبهان زهرة اللوتس!».. وإذ ذاك خطر في ذهنه خاطر غريب، فقال في نفسه: «أن

الناس يزورون الألهة حاملين معهم ذبائح تقطر دماً، ينزلفون بها إليها، أفكثير على أن أقدم لها أعظم ذبيحة على وجه البسيطة .. وهي نفسي؟!».

وإلتفت حوله فوقعت عيناه–في المذبح الخالي من الرواد–على سيف كان بعض الحجاج قد تركوه خلفهم، فربط شعر رأسه بحبل الناقوس، ثم حز رقبته بالسيف. وكان السقوط رأسه على الأرض رنين كرنين الأجراس، دلالة على أن تقدمته قد حازت القبول لدى الألهة!.

وطال إنتظار الزوجة وأخيها له في الخارج به دون أن يبدو له أثر. وأخيراً لم يجد الأخ مفراً من دخول المعبد ليبحث عنه. فإذا به يعثر على جثة زوج أخته ملقاة على الأرض، مقطوعة الرأس. فإضطرب إضطراباً فظيعاً، وإنتابه كرب وهم لا قبل له بهما، ولم يجد في نفسه الشجاعة الكافية.

لأن يعود إلى أخته حاملاً ذلك النبأ المشئوم، ففضل أن يتخلص بدوره من حياته، مستخدماً ذات السيف في قطع رقبته!.

ولما لم يعد الأخ كذلك هاجمت الهواجس والمخاوف نفس«مادانا سونداري».. فدخلت المعبد، وتخيل يا صاحب الجلالة مدى جزعها ولوعتها، حين شاهدت جثتي زوجها وأخيها ملقانين على الأرض بدون رأسين!.. لقد أخذت تولول وتندب، صارخة: وا لهفتاه!.. واحر قلباه!

ماذا بقي لي بعد أن فقدت زوجي الحبيب وأخي العطوف؟»، ولم تلبث أن سقطت على الأرض مغشياً عليها .

حتى إذا عادت إلى وعيها لم تذكر شيئاً مما حدث، ولكنها مالبثت أن لمحت المنظر الرهيب، فعادت ترثي حبيبيها اللذين فقدتهما فجأة ، وهما بعد في ريعان شبابهما، وأخذت تسائل نفسها ما جدوى حياتها من بعدهما؟.. ومن ثم قررت أن تلحق بهما. إلا أنها قبل أن تشرع في تنفيذ ما إستقر عليه عزمها، إتجهت إلى الألهة بصلاة قالت فيها:«أواه أيتها الآلهة العظيمة!.. صاحبة السلطان على جميع الآلهة.. يا من توزعين السعادة والفضيلة بين الناس .. يا من تمنحين جسدك عن حب–لزوجك عدو الحب!.. يا ملجأ الجميع عند الضيق.. يا من تواسين المكروبين وتمسحين عنهم أحزانهم!.. لماذا حرمتني من زوجي وأخي.. أنني لا أستحق منك ذلك. فأنا أشد عبادك إخلاصاً وتديناً. هاأنذا ألقي بنفسي تحت قدميك، سائلة أباء الرحمة. أنني على إستعداد لأن أخلع عن نفسي هذا الجسد الفاني، ولكن.. أناشدك عندما أولد من جديد، أن تخلقيني بنفس هيئتي، وأن يكون زوجي هو ذات زوجي وأخي هو ذات أخي!».

وعندما فرغت من صلاتها الحارة إنحنت للآلهة في تبجيل و إحترام، ثم علقت أنشوطة على فرع من فروع شجرة «أسوكا» في فناء المعبد. وفيما هى تهم بوضع الأنشوطة حول رقبتها، إذا بصوت من السماء يتردد في تلك اللحظة قائلاً:

«لا تمسي نفسك بسوء يا بنيتي و إنك لا تدركين مقدار سعادتي إذ عثرت على هذا القدر من الفضيلة في جسد فتاة جميلة، في ريعان شبابها.. ولذلك قررت أن أستجيب لصلواتك، وأن أبعث زوجك وأخاك إلى الحياة .. فابعدي الحبل عن عنقك، وضمي رأس كل مشويا إلى جسده، فإذا هو حي يرزق!».

وقد أطاعت «مادانوسونداري» أمر الآلهة، فأبعدت الحبل من عنقها، ثم ركضت إلى داخل المعبد، في إهتياج و لهفة جعلتها تخطيء فتضع رأس زوجها إلى جسد أخيهما، ورأس أخيها إلى جسد زوجها.. وكادت أن تطير من الفرح حينما رأتهما ينهيان وليس بهما سوء–إذ لم تكن قد فطنت بعد إلى خطئها–وقد خر الرجلان والمرأة عندئذ على الأرض ركعا أمام الآلهة، يسبحون بحمدها، ويقدمون إليها القرابين!.

وفي طريقهم إلى المنزل وراحوا يتناقشون في أمر المعجزة الخارقة التي حدثت لهم. ومن ثنايا ذلك الحديث أدركت «ماداناسونداري » الخطأ الذي وقعت فيه بإستبدال رأسيهما، فإستولت عليها الحيرة والجزع، ولم تعرف ماذا تفعل..».

وإستطرد الشيطان قائلاً: «والآن، أخبرني يا صاحب الجلالة. من من الرجلين أصبح زوجها؟ .. وإنني أنذرك بأني سأحطم رأسك وأحيلها إلى أشلاء صفيرة، إذا كنت تعرف الجواب وتأبي الإفصاح عنه». وإستغرق الملك«تريفيكراماسينا»في التفكير فترة من الزمن، ثم قال: «أن

الرجل الذي يحمل رأس الزوج وجسد الأخ هو زوجها الحقيقي.. ذلك لأن الرأس–التي تضم بين ثناياها عقل الإنسان–هي أهم عضو من أعضاء الجسد، وأرفعها شأناً. أما باقي الأعضاء فمجرد توابع لها تأتمر بأمرها.. ثم كيف يستطيع جسد الزوج أن يعاشر زوجته والرأس التي توجهه تعلم علاقة الأخوة التي تجمع بينهما؟.

وما أن نطق الملك بالجواب الصحيح حتى اختفى الشيطان–مرة أخرى–بطريقة غامضة من فوق كتفيه، فعاد الملك إلى مطاردته من جديد، وهنالك وجده متدلياً من شجرة «السيسترو»، فحمله فوق كتفيه عائداً أدراجه، وبينما كان الملك يسير بحمله تحدث الشيطان إليه قائلاً: «إليك لغزاً آخر من المغازى، لعلك تنسى همومك :